بين حربي ١٩٨٢ و٢٠٠٦

الجيش الإسرائيلي ... آفاق وإخفاقات

بقلم: واصف عريقات

تظهر حرب لبنان (تموز ٢٠٠٦)، بين مقاتلي حزب الله والجيش الإسرائيلي، التناقضات بين القيادات السياسية والعسكرية الإسرائيلية من جهة، وكذلك بين الجنرالات والقادة العسكريين أنفسهم من جهة أخرى، كما امتدت تداعيات هذه الحرب لتطال الولايات المتحدة الأميركية، التي تحدثت وزيرة خارجيتها كونداليزا رايس عن شرق أوسط جديد، وباتت محرجة أمام حلفائها والمجتمع الدولي بسبب دعمها اللامحدود لإسرائيل، وتشجيعها العدوان على لبنان.

فهذا العدوان لم يسفر، في أبرز مظاهره، سوى عن خسائر فادحة في أرواح المدنيين الأبرياء، وتدمير شامل لأجزاء واسعة من لبنان، في وقت نفد فيه الوقت قبل أن تحقق العملية العسكرية الإسرائيلية أياً من أغراضها الرئيسية، بل على العكس، ازدادت الأمور سوءاً وتعقيداً، فالأمن القومي الإسرائيلي في خطر، وحدود إسرائيل باتت غير آمنة، والحروب الاستباقية "لمنع تنامي قدرات الخصم" أصبحت غير مجدية، والذراع الطويلة لم تعد تقتصر على الإسرائيليين، في وقت أصبحت فيه صواريخ حزب الله تدك العمق الإسرائيلي. أما قوة الردع الإسرائيلية، فأصبحت مثار شك وتساؤل، وانتهى عهد التفوق بالسلاح والإمكانات أمام تفوق إرادة المقاومة والصمود.

عملية "سلامة الجليل"!

ويبدو ما سبق مهماً عندما نأخذ بعين الاعتبار أن الجيش الإسرائيلي، وتبعاً لقدراته وإمكانياته القتالية، يصنف كرابع قوة في العالم، وقد استخدم هذه الإمكانيات ضد الجيوش العربية في حروب غير متكافئة، ما أتاح له تحقيق الانتصارات السريعة؛ فجاءت حرب لبنان (الاستباقية) في عملية "سلامة الجليل" في العام ١٩٨٢، ضد قوات منظمة التحرير الفلسطينية واجتياح الجنوب، وصولاً إلى حصار بيروت، بهدف الاتصال بالسند "الوهمي"، المتمثل حينذاك بـ "الكتائب" من وجهة نظر إسرائيل، ليتم مع محاصرة بيروت، فرض نظام جديد في لبنان، إضافة إلى الوصول إلى طريق بيروت – دمشق عبر الجبل، وكذلك مطار رياق في البقاع.

جاءت هذه الحرب دليلاً على نهاية عهد الآمال الكبرى المعقودة على استخدام القوة العسكرية، كما تحطمت مقولة أن اسم "الجيش الإسرائيلي" وحده كفيل بانهيار المعنويات المقابلة، فهي أيضاً اعتبرت أكثر الحروب السابقة مثاراً للخلاف في أوساط الرأي العام الإسرائيلي، لاسيما أنها كانت تسعى لتحقيق أهداف واسعة بالنسبة للذين بادروا إليها. فقد خططوا كي تنفذ هذه العملية (كعملية محدودة) تستغرق ٤٨ ساعة، كما أبلغ رئيس الحكومة الإسرائيلية، آنذاك، (مناحيم بيغن) أعضاء حكومته، وذلك تحت اسم عملية "سلامة الجليل"، ثم تغير اسمها إلى حرب لبنان (بسبب صمود المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين ثلاثة أشهر، إضافة إلى حجم الخسائر في الجانب الإسرائيلي)، وبهذا انتفى مفهوم الحرب الخاطفة (blitzkrieg). وعلى الرغم من محاصرة الجيش الإسرائيلي، للمرة الأولى، عاصمة عربية (بيروت)، ثم اجتياحها بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين منها، فإنه لم يخرج منتصراً أو حاملاً للاتفاقيات كما يشتهي. وبحسب تقويمات الخبراء الإسرائيليين (كتاب إسرائيل وتجربة حرب لبنان)، فقد كانت فعلاً اختباراً لقدرة الجيش الإسرائيلي، لاسيما على صعيد مواضيع عسكرية عامة، وكذلك المبادئ الحربية الأساسية: السيطرة والقيادة، العمل القيادي على مستوى الأركان، آلية اتخاذ القرار، كما اختبرت القيم العسكرية، كالمعنويات، والمبادئ المستقلة، والعدوانية، والتربية على القيم، والتنفيذ بلا قيد، وأبرز هذه التقويمات هو المتعلق بالفجوة بين قدرة الضباط في الميدان (من رتبة قائد الفصيلة حتى قائد اللواء) وبين ضباط الأركان. واتضح أن القادة حتى مستوى قائد لواء لبّوا بصورة عامة متطلبات الحرب، في حين أن قادة الأركان لم يكونوا على مستوى التوقعات، باستثناء حالات منفردة. ولم يكن سلاح الجو في حال أفضل في تلك الحرب، فعلى الرغم من محافظته على نقاء الأجواء، وتدمير الصواريخ (السورية) المضادة للطائرات، وكذلك تدمير البنى التحتية، والأهداف الحيوية، ومواقع محتملة لقوات المقاومة الفلسطينية، فإنه اتهم بالتقصير في مجال التعاون مع الأسلحة البرية، وتقديم الإسناد اللازم لها.

وتعرضت مقولة "الجيش الأسطوري الذي لا يقهر" للنقاش والجدل

قصف مدمر لقرية عيتا الشعب. (أ.ف.ب)

الجيش الإسرائيلي.. خسائر لم تكن بالحسبان. (أ.ف.ب)

والاستهجان، وبخاصة بعد الانسحاب من بيروت، وتنفيذ مجزرة صبرا وشاتيلا، التي أدخلت الجيش الإسرائيلي في "أزمة أخلاق" أمام العالم، كما تم تشكيل لجنة تحقيق إسرائيلية بعد اتهام الجيش بالتقصير والفشل في تحقيق الأهداف وتضليل القيادة السياسية، وكانت أولى ثمرات هذه اللجنة وقراراتها إخضاع القيادة العسكرية وعملياتها لمراقب الدولة ولجنة الخارجية والأمن. كما فشل الإسرائيليون في تنفيذ اتفاق ١٧ أيار ١٩٨٣ مع اللبنانيين، وكذلك فشلت تجربة إنشاء جيش لبنان الجنوبي، وإقامة منطقة عازلة في الجنوب، وفي نهاية المطاف أجبر الجيش الإسرائيلي على الانسحاب.

حرب مثيرة للجدل

وبين هذا وذاك، كانت الانتفاضة الأولى (الحجر) ثم جاءت الانتفاضة الثانية (الأقصى)، ووجد الجيش الإسرائيلي نفسه في مواجهة دائمة ضد شعب مقاوم، ومجموعات فدائية متحركة أرهقته على الرغم من بطشه وفتكه، وهو يكابر في الاعتراف بحقيقة عدم إمكانية تحقيق الانتصار في هذه المعركة المتواصلة. وفيما كان هذا الجيش يعاني من كل ما سبق، جاءت عملية أسر الجندي في قطاع غزة (الوهم المتبدد)، واستمرار إطلاق الصواريخ الفلسطينية على أهداف إسرائيلية على الرغم من الحصار المفروض على قطاع غزة، وتصعيد عمليات البطش في القطاع، كما هو الحال أيضاً في الضفة الغربية، في ظل تسلم قيادة سياسية حديثة العهد وقليلة التجربة لدفة الحكم في إسرائيل، لكنها تمارس هواية تقليد شارون والقادة السابقين في إصدار قرارات القتل والتدمير. وفي وضع كهذا، جاءت عملية أسر الجنديين في جنوب لبنان (الوعد الصادق)، لتزيد الأمر تعقيداً من حيث توجيه ضربة جديدة لهيبة الجيش الإسرائيلي، فتدنت معنويات جنوده، وتراكم مزيد من المقومات التي تعزز إمكانية الصمود في وجهه، بل وإلحاق الهزيمة به وبمخططاته.

وربما تكون حرب تموز ٢٠٠٦ في لبنان ضد قوات حزب الله أكثر الحروب إثارة للجدل داخل إسرائيل، التي أظهرت إمكانياتها "اللامحدودة" وتفوقها الجوي والمدفعي والصاروخي، أداءً ميدانياً بطيئاً ومقيداً ممزوجاً بالتوجس من المواجهة مع قوات حزب الله، لاسيما أنه جزء من النسيج اللبناني الوطني، وبالتالي أصبح الجيش الإسرائيلي عاجزاً عن تحقيق أهدافه، ولعلها المرة الثانية التي يفقد الجيش الإسرائيلي فيها عنصر المفاجأة (الأولى كانت يوم حرب تشرين العام ٧٣ عندما تم اقتحام خط بارليف)، حيث بات يتعامل برد فعل، وأجبر على دخول المعركة مبكراً قبل استكمال التحضيرات اللازمة، مع الافتقار إلى تقدير لقوة حزب الله القتالية، حسب اعتراف مسؤولين إسرائيليين. وبذلك، حرم الجيش من ميزات المباغتة، لكنه اندفع في تنفيذ سياسة الأرض المحروقة، وتدمير البنية التحتية للبنان، وقتل المدنيين الأبرياء، كما تم تشريد أعداد كبيرة من قراهم ومدنهم، في محاولة لتأليب الشارع اللبناني ضد حزب الله، وتحميله المسؤولية. وفي ضوء الفشل في تدمير قدرات حزب الله الصاروخية والقتالية، توجه الجيش الإسرائيلي نحو الاجتياح البري، لكن بأسلوب مختلف عن اجتياح العام ١٩٨٢ ضد القوات الفلسطينية، لاسيما من حيث عدد القوات المستخدمة (١٠٠ ألف ويزيد في العام ١٩٨٢)، في حين تم الزج الآن بلوائي جفعاتي وجولاني + ٥٠٠٠ احتياط)، ثم تم استدعاء المزيد (٣ فرق)، وهناك من يتحدث عن استدعاء ٥٠ ألفاً.

ويلاحظ أن الجيش الإسرائيلي لم يستخدم، هذه المرة، أسلوب الهجوم الشامل والاندفاع السريع. ففي حين تم خلال حرب ١٩٨٢ بناء رأس جسر عند الرميلة، شمال صيدا، في الأيام الأولى للقتال، ووصلت القوات الغازية إلى صور وصيدا والزهراني والدامور وخلدة عند مدخل بيروت الجنوبي براً وبحراً، في الوقت نفسه الذي وصلت فيه هذه القوات إلى سهل البقاع وجزين وظهر البيدر عند المديرج (طريق بيروت – دمشق الرئيسية) مع إنزالات جوية على التلال الوسطى، كما تم قصف الصواريخ السورية والقوات المنتشرة في البقاع وظهر البيدر والجبل وجزين في منطقة الرادار وخلدة والمصنع الحدودية، فإن الجيش الإسرائيلي يستخدم الآن أسلوب "المدحلة" في التقدم، من قرية إلى قرية. ولتجنب المواجهة المباشرة مع مقاتلي حزب الله، شق هذا الجيش باستخدام الجرافات طرقاً التفافية، وحاول بناء رأس جسر لقواته في مثلث (مارون الرأس – عيترون – بنت جبيل) فجوبهت هذه القوات بعمليات نوعية وجريئة (كمائن) وتكتيكات أذهلت قياداتها (منها قتل عناصر الاستخبارات، وإسقاط طائرة الهيلوكبتر)، وتكبد الغزاة خسائر جسيمة في الأرواح (١٨ قتيلاً وعشرات الجرحى)، ما أحرج القادة العسكريين وأربك القادة السياسيين، وأخذوا يتحدثون عن جندي "مجرب" في لبنان، وآخر "حديث العهد"، وهي مقولات تساق كجزء من ذرائع الفشل، التي عكست نفسها على مناقشات قادة إسرائيل أثناء اجتماع المجلس الأمني المصغر يوم الخميس ٢٠٠٦/٧/٢٧، حيث اتخذ المجلس قرارات ظاهرها "خفض سقف الأهداف العسكرية"، وتكثيف الغارات الجوية (قصف تمهيدي/ تدميري) لتسهيل عملية تقدم القوات البرية، والتحدث عن بناء منطقة أمنية خاصة (بدلاً من منطقة عازلة)، واستدعاء المزيد من الاحتياط، والتصريح بعدم استهداف أو ضرب سوريا أو المدنيين اللبنانيين.